إنشاء الاتحاد العربي سيعزز من قدرة الأمة العربية ومنعتها في مواجهة كافة التحديات والمخاطر المحدقة بها

علي عبدالله صالح - رئيس الجمهورية

14 أكتوبر
يومية - سياسية - عامة
الجمعة 14 مايو 2010 م - العدد (14819) السنة الثانية و الأربعون

قراءة في صفحة من صفحات تاريخ اليمن

« لا بد من صنعاء وإن طال السفر »

« لا بد من صنعاء وإنّ طال السفر » هذه المقولة أو العبارة يظن الكثير من الناس وإنّ لم يكن الغالبية منهم أنها تعود إلى الإمام الشـافعي المتوفى سـنة (204 هـ / 820 م) . حقيقة أنّ الإمام الشـافعي تولى القضاء في صنعاء في فترة من فترات عصر الخليفة العباسـي هارون الرشـيد المتوفى (193هـ / 809 م) ولكنه في الواقع لم يقل تلك العبارة من قريب أو بعيد. والجدير بالذكر أنّ هذه المقولة أو العبارة تعود إلى العصر الجاهلي أي ما قبل الإسلام . فقد قالتها العرب حيث كانت قوافل قريش ترحل من مكة إلى صنعاء في الشتاء , وفي الصيف تيمم وجهها صوب الشـــام . وتلك الرحلة ذكرها القرآن الكريم وهي رحلة الشتاء والصيف في سورة قريش آية (2) . ونسـتدل من ذلك أنّ صنعاء مدينة موغلة في القدم , مدينة مشـهورة ومعروفة لدى العرب في جزيرة العرب منذ زمن بعيد , وكان اسمها في الجاهلية (أزال) . وقيل أنّ التاريخ لم يشهد مولدها . ويقال إنّ سام بن نوح هو الذي أسّسهـــا .

محمد زكريا

فريدة في مظهرها

وبنظرة عالم متخصص في علم الآثار يصف الدكتور أحمد فخري مدينة صنعاء القديمة وصفـاً علميًا عميقًا حيث زارها لأول مرة سـنة 1947م بأنها مدينة تتميز عن كافة مدن الشرق الأخرى ، فهي مازالت محافظة على أصالتها ، ورونقها ، وجمالها الذي يأخذ العين أخذاً ، مدينة تخلب الألباب لا يستطيع المرء الإنفكاك من شباكها السحرية غير المرئية . وعندما يتجول المـرء في أزقتها ، وطرقاتها ، يحس إحساسـاً غريباً أنه أنفصل عن عالمه وأنه يعود إلى زمن العصر الذهبي للحضارة العربية الإسـلامية المتألقة ، فيقول : " لا توجد في مدن الشـرق مدينة تشبه صنعاء لنقارنها بها ، فهي فريدة في موقعها ، وفريدة في طراز بنائها ،و فريدة في أسوارها ، وفريدة في مظهرها الشرقي الخالص الذي يجعل السائر في طرقاتها يحس بأنه انتقل بضع مئات من السنين ، فتصور نفسـه في بغداد أو في غيرها من مدن الحضارة الإسلامية " . ويمضي أحمد فخري في وصف المدينة ، فيقول : " وتتصل صنعاء من ناحية الشـرق بجبل نقم وتعداد سكانها لا يقل عن 60000 ، وطول المدينة كلها من الشرق إلى الغرب لا يقل عن خمسة كيلو مترات أمّا عرضها فلا يزيدعلى كيلو مترين . وسمك السور يختلف باختلاف الأحياء أمّا عرضه فلا يزيد على مترين وتارة لا يقل عن أربعة أمتار . ويوجد في كل 50 مترًا تقريبًا جزء مستدير بارز في السور إلى الخارج ويسمونه النوبة ومجموع عدد هذه الحصون الصغيرة 128 حصنًا " .

صنعـــاء في عيون ألمانية

والحقيقة أن من خلال وصف المهندس كرسـتن نيبور الألماني لمدينة صنعاء التي زارها في سـنة 1763 م يعطيننا صورة أو صورا واضحة عمّا كانـت عليها المدينة في النصـف الثاني من القرن الثامن عشـر أو بعبارة أخرى أنّ حديثه عن المدينة سـيكون بمثابة توثيق حي ومهم عن حياتها الاجتماعية المتمثلة بطرازها المعماري المرتبط بحياة الناس ارتباطاً وثيقاً وشائجًا في تلك الفترة ، فالمهندس نيبور يصف موقع المدينة ، ويشير إلى أهم مساجدها ، ويروي عن سورها وأبوابها المشهورة التي تزينها , ويتكلم عن منطقة بئر العزب وهي حديثة عن مدينة صنعاء العتيقة وفيها قرية أو منطقة يسكنها اليهود تسمى قاع اليهود . ونقتطف أهم ما جاء في وصف نيبـور لصنعاء ، فيقول : " تقع مدينة صنعـاء عند أقدام جبل نقم الذي لا تزال توجد عند سـفحه بقايا قصر قديم ، يقول اليمنيون إنه كان قد بناه سـام بن نوح ، وفي الجانـب الغربي من المدينة يوجـد نهر صغير . وعلى ضفافه يقع بستان المتوكل الذي أنشـأه الإمام المتوكل (*) " ويسترسل في حديثه ، فيقول : " وقد بنى فيه (أي البسـتان) الإمام المهدي العباس قصرًا جميلاً ، وبسـتان المتوكل محاط بسور ترابي ، يتصل طرفه بسور المدينة وعليه أبراج كثيرة . وفي جانـب المدينة المواجه لجبل نقم توجد قلعة ، يؤكد اليمنيون أنها بنيت على تل غمدان ، ولها سـور متصل طرفاه أيضاً بسور المدينة " .

أبوابـــها العتيـــقة

ويمضي (نيبور) في وصف سور صنعاء العتيق عمّا كان عليه في النصف الثاني من القرن عشر الثامن عشر الميلادي (1763 م) ، فيقول : " ويحيط بمدينة صنعاء سور يفصلها عن القلعة ، كما يفصلها عن بستان المتوكل . ولمدينة صنعاء أربعة أبواب كبيرة وهي : 1 ـ باب اليمن . 2 ـ باب السبح . 3 ـ باب شعوب . 4 ـ باب إسـتران Bab East ran . وهذا الأخير ينفذ إلى القلعة ، ولكنه لم يعد يفتح منذ سـنوات عديـدة . وبالإضافة إلى الأربعة أبواب الكبيرة هناك ثلاثة أبواب صغيرة ، وهي : 1 ـ باب شرارة . 2 ـ باب حديد 3 . Hadid ـ باب فجير Fogair . وينقل الدكتور أحمد قايد الصيادي عن نيبور وصـف جوامع مدينة صنعـاء ، وعن الحدائق الغنـاء التي كانت تحف المدينة فيقول " وتبدو مدينة صنعاء مدينة مأهولة بالسكان بشكل كبير ولكنها مع ذلك ليست مزدحمة المباني ، إذ تتخللها كثير من الحدائق . وقد أحصى نيبور عدد المنارات (مآذن الجوامع) فوجدها تسـع إلى عشر منارات . ويقع الجامع الكبير في منتصف المدينة وله منارتان (مئذنتان) . أمّا المساجد الأخرى ، فقد قيل لنيبور أنّ أسماءها هي : المدرسة ، صلاح الدين ، الطواشي ، البكيرية ، ومسجد آخر داخل القلعة . . . وقد بني بعض هذه المساجد من قبل الأتراك (أي في عصر الفتح العثماني الأول لليمن سـنة 945 هـ / 1538م) ، وبنى الإمام المهدي عباس مسجدًا فخمًا غنياً بالمياه التي ينتفع بها الإنسان والحيوان . وشيد بجانب المسجد مبنى صغيراً جهز فيه قبرًا له " .

حياتها الاجتماعية

قلنا سـابقاً : إنّ الرحال كرسـتن نيبور اسـتطاع بأمانة ودقة عميقين أنّ يصور الحياة الاجتماعية التي عاشـها سكان صنعاء وذلـك من خلال وصف الطـرز المعمارية في صنعـاء المرتبطة ارتباطاً وثيقاً وشـائجاً بحياة الناس، فهو يتحدث عن الحمامات العديدة التي كانت تملأ المدينة ، وعـن القصور والدور المبنية بالحجارة المنحوتـة ، وكذا المبنية بالطين المتعلقة بالشـرائح السكانية المتوسطة الحال , ويشير نيبور إلى مسألة مهمة تتعلق بارتباط البناء بالمناخ أو بعبارة أخـرى انعكاس المناخ على طرز البناء وتشكيله . وفيما يلي نص ما ذكره المهندس الألماني نيبور عن طراز صنعاء المعماري المرتبط بحياة سكان صنعاء الاجتماعي . فيقول : « ويوجد في مدينة صنعاء حوالي اثني عشر حمامًا عامًا . كما تنتصب مجموعة من القصور الفخمة، كقصر بسـتان السلطان ودار النصـر ودار فتح Fatch Dar، وقد بنيت جميعها من قبل الإمام المهدي عباس . إضافة إلى قصر الإمام المنصور وإلى العديد من البيوت الكبيرة التابعة لأفراد أسرة الإمام ، ولأعيان صنعاء . وهذه الدور والقصور مبنية بالحجـارة المنحوتة أو بالياجور . وهناك بيوت كثيرة مبنية باللبّن . ولنوافذ البيوت مصاريع ، تظل مفتوحة في الطقس الجيد ، وتغلق عندما يكون الطقس رديئاً .

القمريـــات

ويذكر نيبـور أهم الملامح التـي تميز طرز العمـارة الصنعانية اليمنية الأصيلة إن لم يكن على الإطلاق جميعاً وهي القمريات ، فيصف القمريات، فيقول : ينفذ الضوء عبر كوة صغيرة مدورة ، تقع فوق النافذة ، وقد سدت بقطعة سميكة من زجاج ماريا ، ينفذ الضوء من خلالها ، وفي بعض بيوت الأعيان وضع زجاج بعضه ملون جلب من البندقية . ومثلما أعجب المهندس الألماني بالقمريات اليمنية ، أعجبتها أيضًا الدكتور الفرنسية كلودي فايان التي زارت صنعاء اليمن سـنة 1951م أي بعـد قرابة أكثر من قرن ونصف القرن مـن رحلته إلى صنعـاء ، فتصفهـا ، قائلة : " والزخرفة الرئيسـية في بيوت صنعاء هي النوافذ الواسـعة العاليـة . فلا يمكن لأحد أنّ يتصور المدينة دون أنّ يفهم هذه النوافذ . إنها تتكون من جزءين : الجزء الأسفل وهو النافذة بمعنى الكلمة ولها عدة مصاريع خشبية ، والجزء العلوي وهو عقد من الزجاج الملون الثابت الذي لا يفتح ، ومن أسـلوب صناعته ونوعه يعرف الإنسان تاريخ البناء . وقد عرف اليمنيون كيف يصنعون هذه العقود الزجاجيـة؟ . وكيف يتفادون تراكم الغبار والرمال عليها ؟ . ورسـموا عليها زخـارف عديدة بالزجاج الملون الذي يعكس أشـعة الشـمس " . وتضيف ، قائلـة : " وكما أنّ جمـال البيوت الخارجي يكمن في النوافـذ ، فإنّ النوافذ أيضًا تتجلى بالأناقـة والبهاء في الداخل . . . وتنفـذ من العقود الزجاجية أنوار بهيجة مفرحة تعكس على الجدران البيضاء " .

قلعـــة صنعـــاء

ويشـير نيبور إلى قلعة صنعاء والتي ضمت عدداً مـن القصور الخاصة بأمراء الأسـرة الحاكمة (القاسـمية التـي حكمت اليمن ابتداء من سـنة (1635 وحتـى 1849 م) والواقعة على تل غمـدان, وتوجد في تلك القلعة دار لسك النقود ، وسجون ، وفي أحد الأدوار العليا في القلعة توجد مدافع . ومن المحتمل أنّ تكون قلعة صنعاء ثكنة عسكرية للإمام ، ومقرا للشئون الإداريـة للدولـة . فيصفها ، قائـلاً : " وتقع قلعة صنعـاء على تل غمدان الشهير وبداخلها قصران : أحدهما يسمى دار الذهب Dar Eddahhb. ويذكر أحمد الصيادي أنّ نيبور شـاهد في قلعة صنعاء " أطلالاً لمبان قديمة . . . ويسكن في المدينة في القلعة عدد من أفراد أسرة الإمام . كما يوجد فيها دار لسك النقود , وسـجون ، ذات حجرات مختلفة الأحجام وفي أعلى موقع القلعة توجد جربة المدافع ، أي حظيـرة المدافع ، وفيها عدد من المدافع . كما يوجد عدد آخر من المدافع موزعة على ثلاثة أبواب من أبواب المدينة ، وهي باب اليمن ، وباب السبح ، وباب شعوب " .

بئـــر العـــزب

وبالقرب من مدينة صنعاء العتيقة تطفو ، مدينة أو قل قرية تسمى بئر العزب وهي من المناطق أو الأحياء الحديثة التي ظهرت بعد صنعاء القديمة بزمن بعيـد ، وفيها توجد قرية أو منطقة تسـمى (قاع اليهود) يسـكنها اليهود اليمنيون وفي هذا الصدد ، يقول نيبور : " وفي غرب مدينة صنعاء توجد قرية أو ضاحية بئر العزب ، وفيها جامع كبير وله منارة (مئذنة) . وتقع بيوت بئر العزب متناثرة على مسـيل صغيـر . وبالقرب من بئر العزب توجد قرية كبيرة تسمى قاع اليهود يسكنها اليهود , وإلى الشمال من صنعاء تقع منطقـة الروضة . . . وتكثر فيها الحدائق . وعادة ما يشـبهها العرب بمنطقة دمشـــق " .

أســـواق صنـــعاء

ويصف المهندس (نيبور) أسواق صنعاء بأنها كانت تموج بالسلع والبضائع مـن كل لون وصنف ، فيقول : " وفي سـوق صنعـاء . . . توجد مطارح كبيرة للقوافل ، وسمسرة Simsera لمبيت التجار ، والمسافرين ، وأماكن تباع فيها الأخشاب والحطب ، والحديد والعنب ، والحبوب والزبدة والملح ، ظهور البائعات من النساء بكثرة في سـوق الخبز " . ويلفت نظر نيبور فئات المهن والصناع أو الحرف المختلفة والمتنوعة في سـوق صنعاء فكل مهنة لها اختصاصاتها أشـبه بالنقابات المهنيـة . وفي هذا الصدد ، يقول : " . . . يشـاهد المرء في سـوق صنعاء النجارين والحدادين والإسكافيين والسراجين (صانعي سروج الخيل) ، ومجلدي الكتب والكتبة الذين يكتبون العرائض . . . " . ويتحدث نيبور بالتفصيل عن أنواع السلع والبضائع المعروضة الواردة من بلاد فارس، تركيا ، والهند على صنعاء من ناحية يتحدث عن مكان خاص في السـوق يتم فيه تبديل الملابس القديمة ، فيقول : " ويوجد في صنعاء أيضاً سـوق يستطيع المرء أنّ يسـتبدل فيه ملابسـه القديمة ، بملابس جديدة . كما يوجد تجار يبيعون بضائع هندية وفارسية وتركية وغيرها . كما تباع البهارات والأدوية والقـات وأنواع الفواكـه المجففة الطازجة التي تتوفـر بكميات كبيرة ، مثل العنبروت والمشمش والفرسك والتين وغيرها من الفواكه " .

سوق الوراقين

ونقـف عنـد المهنة الـذي ذكرها نيبـور قبل قليـل وهي مهنـة (تجليد كتـب المخطوطـات وزخرفها) ونسـتدل من ذلـك على أنّ صنعـاء كان بها سـوق الوراقين وهي سـوق عامرة بالكتب القيمة والنفيسة حيث يأتي إليها الكتاب والأدباء من كل مكان سـواء مـن داخل اليمن أو خارجهـا لاقتنائها , وقيل أن العديد مـن الأمراء والملوك والسلاطين ، كانوا يبعثون الأدباء والشـعراء للبحث والتنقيب عن المخطوطات اليمنية المهمـة والنـادرة فـي مختلف فروع العلـوم والمعرفة. وكان فـي هـذا السـوق أيضاً النسـاخ الذين ينسخون المخطوطـات والذيـن كانـوا يتميـزون بخطهـم الجميـل . وتذكر المراجـع التاريخية أنّ النسـاخ اليمنيين تفننوا في كتابـة خط حروف القرآن الكريم و زخرفته ، وكذلك كانوا يتقنون فن زخرفة غلاف الكتب والتي عادة ما تكتب بماء الذهب . ونستخلص من ذلك أنّ صنعاء كانت تحفل بالحياة الثقافية في تلك الفترة التاريخية وعلى وجه التحديد في (القرن 18م) (القرن 12هـ) . والحقيقة أنّ حرفة أو صناعة تجليد الكتب وزخرفتها , كانت مشـهورة ومعروفة في صنعاء منذ زمن بعيد تعود إلى عصر الخلافة العباسية الزاهي . وهذا ما أكده الدكتور محمد ماهر حمادة ، قائلاً بما معناه : " إنّ أهل صنعاء كانوا مهرة في تجليد المخطوطات وزخرفتها بصورة تدعو إلى الإعجاب " . وتطرق نيبور إلى صناعة الأسـلحة في اليمن ، وقد لفت نظره أنّ صناعة السـيوف التي كانت تشتهر بها اليمن ، قد تلاشـت أو بعبـارة أخرى باتت من الأسـلحة الكمالية أو النـادرة بعد أنّ حلـت محلها البنادق أبو فتيلـة ، ويبدو أنّ البنادق دخلـت اليمن عبر الحكم العثماني الأول لليمن سـنة 1538م . ويذكر نيبور الصناعات التقليدية التي اشـتهر بها اليمنيون وهي صناعة الجنابي والسكاكين . ويشير نيبور إلى أن اليمنيين " بدؤوا منذ سـنوات قليلة يصنعون بنادق بأنفسهم ولكن نوعيتها لا تزال رديئة " .

صنعاء ومظاهر الأعياد

وينقل المؤرخ القاضي إسماعيل بن علي الأكوع عادات وتقاليد أهل صنعاء في العيد أو الأعياد الإسـلامية (عيد الفِطـر ، وعيد الأضحى) ، وكيف كانت المدينة تتزين في تلك الأعياد والمناسبات الدينية عن المؤرخ الرازي المتوفى سنة (460 هـ / 1068 م) في كتابه (تاريخ صنعاء) ، فيقول : " فكان إذا كان يُوم الأضحى أو الفِطر أمروا (أي التجار والأغنياء) عبيدهم وإماءهم ، فكنس كل رجل منهم سـاحة بابَ داره ورشوها بالماء ، فيصير الموضع كله نظيفا مرشوشاً بالماء ، ويبسطون حضر السـامان (الخيزُران) ويجعلون على كل باب وفنائه تلك الحُصُر المعروفة بحُصُر السامان ولزلالي (البسط) الرومي والطرطوسـي والأرمني من الأحمر وغيره من الأرجـوان ويطرحون الريحان وغيره من الأزهار الطيبة والأنوار العبقة ، ويرشونها بالماورد الكثير والكافور ويجعلون المقاطر الصفـر (المَجَامِر) الكبيرة بين تلك الأفنية ، ويطرحون عليها من العُود الرّطب وغيره من الند المُتعالي في ثمنه وصنعته ، فيبخرون الموضع كله مع المُصلى من صلاة الفجر إلى انصراف الإمام والناس من صلاة العيد " . ويضيف مؤرخنا إسماعيل الأكوع ، فيقول : " ويجعلون على كل باب من تلك الأبواب (كِيزان) الماء الجدد ، قد بُرد ليشرب الناس " .

مع ابن بطـــوطـــة

وفـي عهد السـلطان الملك المجاهد علـي بن المؤيد بن داود الرسـولي المتوفى سنة (764 هـ / 1363م) وطأت قدما الرحال المشهور ابن بطوطة المتوفـى (779هـ / 1377م) صنعـاء ، قادمًا من تعز العاصمة السياسـية للدولة الرسـولية التي حكمـت اليمن قرابة 226 عامًا . ولقد شـهدت اليمن بصورة عامة ازدهارًا كبيرًا في عهد الدولة الرسولية . وعلي أية حال ، يصف ابن بطوطة صنعاء منذ قرابة ستمائة سنة ، قائلا : " وهي قاعدة بلاد اليمن الأولى . مدينة كبيرة حسنة العمارة ، بناؤها بالآجر والجص ، كثيرة الأشجار والفواكه والزرع ، معتدلة الهواء طيبة الماء . . . والمدينة مفروشة كلها . فإذا نزل المطر غسـل جميع أزقتها وأنفاقها . وجامع صنعاء من أحسن الجوامع ، وفيه قبر نبي من الأنبياء عليهم السـلام " . ونستخلص من ذلك أنّ صنعاء ، كانت في عهد حكم الدولة الرسولية مزدهرة ازدهارًا واسعًا ودليل ذلك أنّ أهل صنعاء ، كانوا يسـكنون الدور البديعة الشكل المبينة بالآجر والجص ، وكانت صنعاء أيضًا مليئة بالأشجار الكثيفة ، والفواكه العديدة ، وأنّ المدينة كانت تتميز بالتنظيـم والنظافة ودليل ذلك أنّ المطر إذا هطل على صنعاء غسل جميع أزقتها وأنفاقها . ويذكر ابن بطوطة أهم معلم من معالم صنعاء واليمن بصورة عامة ، وإنّ لـم يكن أهمها على الإطلاق وهو جامع صنعاء أو جامع صنعاء الكبير والذي بناه فروة بن مسيك المرادي * في عهد رسول الله * . وفي رواية أخرى ، تقول أنّ من قام ببناء الجامع هو الصحابي الجليل وبر بن يخنس الأنصاري بأمر من رسول الله * .

المدينة المقدسة

وفي سنة 1931 م ، تسلل الرحال الألماني هانز هولفريتز خلسة عن عيون جنود الإمام إلى داخل اليمن أو البلاد المحرمة ـ على حد تعبيره ـ وفي تلك الرحلة تم القبض عليه بسبب دخوله اليمن من الباب الخلفي أو بعبارة أخرى لم يسـتأذن الإمام بدخولها بصورة شرعية أو رسمية ، بعد أنّ دخلهـا بصورة شرعية ورسمية سنة 1930م ، ولكنـه كان في تلك الرحلة الأولـى مراقباً بصورة شديدة ، وقد سمح له فقط في الإقامة والتجول في صنعاء فقط . وعلى أية حال ، في الرحلة الثانية غير الشرعية أو غير الرسـمية ، فقد تم القبض عليه ، وصدرت الأوامر بترحيله من مأرب إلى صنعاء . وبعد رحلة شاقة وصعبة ابتداء بصحراء مأرب ومرورًا بسـهول وأودية تهامة ، وانتهاء بالمناطق الشـمالية الجبلية ، بجبالها العالية الشاهقة التي تلامس وجه السماء ، لاحت في الأفق صنعاء بجمالها الأخاذ الذي يخلب العقـول والقلوب معاً ، فيصفها ، قائلاً : " وعندما وصلنا جبل نقم في الصباح التالي ، واستدرنا حول المنعطف ، وجدنا أنفسـنا ، وقد تخلصنا من المنظر الذي كنا نراه طيلـة اليومين الماضيين ، وأبصرنا أمامنا من الناحية الأخرى مدينة صنعاء المقدسة , وقد امتدت أمامنا تحت أقدامنا . وقد أسـميتها بالمقدسة لأنها تضم ثمانية وأربعين مسجدًا ، وتسعة وثلاثين كنيساً لليهود وأثني عشر حماماً عاماً لنحو من خمسين ألفاً من البشر " . ويمضي في حديثه ، قائلاً : " وإذا ما تطلع الإنسان إلى المدينة من مكان بعيد ، بدت له وكأنها عنكبوت هائل . هبط من السفوح نحو الوادي ، وانتشر نسـيجه تحت رأسه الذي يقع في المنحدر . وبدت البيوت المتراصة التي اسـتحمت جدرانها تحت أشـعة الشـمس المحرقة ، كأنها مجموعة من الصخور العمودية البيضاء ، المؤدية إلى قصر ذي أربع طبقات ، عبر سلسلة من القطاعات التي ترتفع تدريجيًا إلى أنّ تصل قمم منائر (مآذن) المساجد ، وكلها تعلوها قمم من الجبال ، ذات الأشكال الغريبة " .

بين صنعاء وباريس

وتصـف كلودي فايـان الطبيبة الفرنسـية صنعاء القادمة إليها في سـنة 1951م من باريـس مدينة النور والعلوم والمعرفة ، والضوضاء ، والصخب , والبهرجة ، والعمران الحديثـة الباهرة وصفاً غاية في الروعة لمدينة صنعاء الضاربة جذورها في أعماق فجر التاريخ الإنساني والذي ولدى وتربى التاريخ على حجرها تدل على عاطفة جياشـة من الطبيبة الفرنسـية تجاه المدينة العتيقة ، فضربت بالحياة الحديثة في بلادها عرض الحائط ، واسـتلقت في أحضان جمال صنعاء الأصيـل المدينة الخارقة ـ على حد تعبيرها ـ . وهذا ما دفع الشاعر الشـهيد رائد الحركة الوطنية محمد محمود الزبيري أنّ يثني عليها ثناءًا كبيرًا بسـبب قدومها من قلب النور إلى مجاهل الجهل والتخلف والظلم في عهد حكم أسرة آل حميد الدين التي حكمت اليمن ردحاً من الزمن , ، فيقول : " قرأت الكتاب ـ(كنتُ طبيبة في اليمن)عدة مرات والحق أني ما قرأته إلاّ وبهرتني فيه النزعة الإنسـانية المترفقة الودود ، واستمر إعجابي وتجدد كلما جددت قراءة الكتاب . إنسانة خلقت وعاشت في أوروبا وانبثقت روحها من دنيا القرن العشرين ترجع فجأة عشرة قرون إلى الوراء وتعيش فترة في دنيا تلك القرون فلا تنفر ولا تستكبر ولا تستوحش وإنما تتسامى وتنصهر في لهب من الألم والعطف والرحمة " .

المدينـــة الخارقـــة

وعندما صافحت كلودي فايان الطبيبة الفرنسية عيناها لأول مرة صنعاء ، عشـقتها من أول وهلة ولم تستطع الفكاك من شـباكها السحرية غير المرئية ، فتصفها ، وقد ملأت كل وجدانها ومشاعرها ، فتقول : " إنّ صنعاء مدينة خارقة للعادة حيـن يُنظر إليها من الجو . فهي مزدحمة محصورة داخل أسـوارها ، ولكنها في نظر المسافر الذي قطع الجبال سعياً إليها ، خلابة رائعة. فقد قضى أياماً لم ير خلالها إلا قرى صغيرة بائسة معلقة على قمم المنحدرات الصخرية وأكواخاً تعسة تنم عن حياة بدائية وأقل من بدائية ثم فجأة يرى أمامه مدينة ضخمة سـكانها سـتون ألفاً . في موقع رحب على سهل فسـيح ولها كل مظاهر العاصمة الكبيرة ، مدينة لها عماراتها الشـاهقة المتلاصقة الفخمة المغطـاة بالزخرفة والنقوش البيضاء وتعلوها المنارات العديدة . . إنّ هذا التناقض يأخذ باللب لكأن هذا المجموع المعماري المتناسق بهذا المعنى وهذه الوفرة برز بفعل السحر في إطار يكاد يكون كله من المعدن ، إنّ هذه هي الأصالة العميقة لصنعاء وهي التي كونت مجدها منذ أزمان طويلة في جنوب الجزيرة العربية " .

بـــاب اليمـــن والأسطورة

وفي موضع آخر تتحدث كلودي فايان عن أشهر معالم صنعاء وهو باب اليمن الذي تروي عنه أسطورة ، فتقول : " أسوار من الطين كثيفة وعالية ، تحيط المدينة من كل جانب ، أبواب تقفل في الليل ، والباب الرئيسـي هو باب اليمن الذي يفتح إلى الجنوب والذي يجب أنّ يدخل منه الأجانب . تلك قاعدة متبعة بدقة تفسرها خرافة قديمة . . فقد كان في عقد الباب طلسم أو حجاب للحماية ، فإذا أجتازه العدو أو الثعبان السام خر لتوه صعقا . . ولكن الباب العربي القديم ، قد حل محله للأسف باب تركي . . . صنع حديثاً ، وقد اختفى الطلسم . . فليحفظ هذه المدينة . . . " .

أبراج المدينة

وتلتقط عدسـة الطبيبة الفرنسـية صورة أو صوراً عـن أقدم حي من مدينة صنعاء القديمة العتيقة والذي يحفها أسوار وأبراج ، وتخترقها ستة أبواب ، فتقول : " أمّا المدينة القديمة فهي أقدم أقسام صنعاء وأكثرها اتساعا الذي يلحظ الإنسـان في قمته خيال حصن قام على أطلال قصر سام بن نوح ، أبي الساميين جميعاً . . إنّ أسوار المدينة ترتفع عشرة أمتار وتعلوها طريـق دائرية ، ويعززها مائة وثمانية عشـر برجاً . وفي هذه الأسوار أبواب ستة ففي الشـرق باب القصر ، وفي الشمال باب شعوب ، وباب الشقاديف ، وفي الغرب جهة حي بئر العزب باب السباح ، وفي الجنوب باب اليمن ، وباب خزيمة " .

مساجـد صنعـــاء

ويلفت نظر كلودي فايان مساجد صنعاء الرائعة الشكل بمآذنها الشامخة الصاعدة نحو السماء. وقد وصفت الجامع الكبير بشيء من التفصيل إلى جانب عدد من الجوامع الأخـرى التي تطفو على وجه المدينة. وفي هذا السـياق ، تقول : « والجامع الكبير يرجع عهده إلى القرن السابع / القرن الأول الهجري وهو واحد من أكرم مسـاجد الإسـلام . (أي الجامع الكبير) وهو بناء مربع ضخم مكوّن من رواق مسقوف حول بهو في وسطه بناء شبيه ولكنه فارغ ، وهو على العموم ليس فاخرا ، وأعمدته خشنة ، وأرضه مفروشـة بسجاد من الصوف الأبيض والأسـود ، وله تسعة أبواب . . . « . وعن المساجد الأخرى التي تزين مدينة صنعاء فتقول : « وفي صنعاء نحو أربعين مسجدا ، بينها خمسة عشر مسجدا ، مناراتها (مآذنها) جميلة جدا، وأحدث هذه المساجد ما بني منذ أقل من مائتي سنة ، وهى تركية فيها قبة رئيسية محاطة في بعض الأحيان بقباب صغيرة أما المساجد الأكثر قدمًا فهي تلك التي ترجع إلى القرن الحادي عشـر / القرن الخامس الهجري وهي بناء يمني خالص ، ومناراتها سميكة اسطوانية الشكل علـى قاعدة مزدوجة ذات ثمانية أضلاع ، ثم مربعة وهي مزخرفة كالبيوت من أعلاها إلى أسـفلها بالقرميد النيئ المصبوغ باللون الأبيـض ، والزخرفة في الغالب نقوش دينيـة وآيات من القرآن « . وتشـير كلودي فايان إلى مواقع المساجد في صنعاء والتي تكون الأسواق بجانبها وهي على طراز تخطيط أسواق المدينة الإسـلامية . وفي هـذا الصدد ، تقول : « وتقع المسـاجد في الغالب في أماكن خلوية مفتوحة وبعضها تكون في مناطق الحركة والانتعاش كمناطق بيع الحطب وأخشاب البناء التي تأتي بها الجمال كل صباح من أماكن بعيدة وتبيعها في نفس اليوم وأسـواق الحيوانات التي يبيعون فيها الأبقار والجمال ، وهناك أسواق مسـقوفة تخصص لبيع البُن أو الزبيب كل صنف في موسمه » . ويلفت النظر أنّ وصف المهندس الألماني كرستن نيبور لمدينة صنعاء سنة 1763م ، والرحال الألماني هانز هولفريتز في 1931م ، أو الطبيبة الفرنسية كلودي فايان في عام 1951م ومن قبلهم عالـم الآثار الدكتور أحمد فخري الـذي زار صنعاء سـنة 1947م . لم تتغير صورتهـا أو صورها ولـم تمتد إليها أيادي التبديل والتغييـر فظلت المدينة العتيقة محافظة علـى تراثها وتاريخهـا الأصيل ، رغم مـن مرور الأيام والشهور والسنون الطويلة .

" عن ساكنـــي صنعـــاء "

ويتغنى الشاعر اليمني عبد الرحمن الآنسي بجمال ورواء صنعاء الرائع, وقد أنبهر بحسنها الفاتن وبهائها المشرق ، فيقول :

عـــن ســـــــــاكـــني صـنـعـــاء
حـديـثـك هـــات وافـــوج النســـيم

وخـــــــــــفـف الـمـســـــعـى
وقـف كـي يفهم القلب الكليـــم

هـــل عَـهـــــدُنـــا يُـرعـى
وهـــل يـرعـى الـعُـهـود إلاّ الـكـريـم "

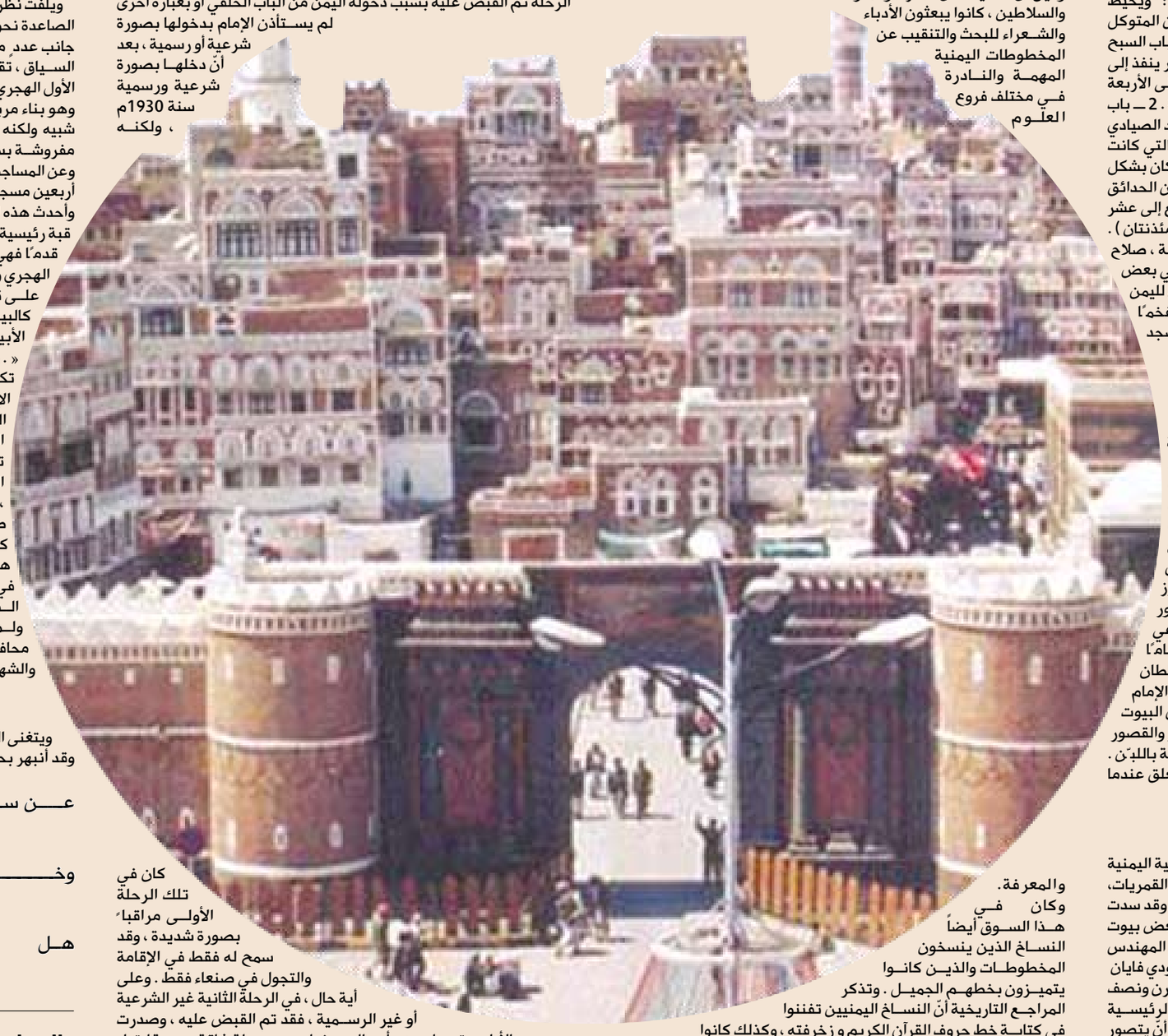

الهوامـــش :

الدكتور أحمد فخري ، مراجعة وتحقيق : الدكتور عبد الحليم نور الدين ؛ اليمن ماضيها وحاضرها ، الطبعـة الأولى 1378 هـ / 1957م ،المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع ـ صنعاء ـ .

الدكتور أحمـد قايد الصايدي ؛ المادة التاريخيـة في كتابات نيبور عن اليمن، الطبعة الأولى 1410هـ / 1990م ، دار الفكر المعاصر ـ بيروت ـ لبنان ـ .

(*) الإمام المتوكل إسـماعيل بن القاسم تولى الإمامة بعد وفاة أخيه محمد بن القاسم عام 1504 هـ / 1644م ، واستمر فيها حتى وفاته عام 1087هـ / 1676م .

الدكتور محمد ماهر حمادة ؛ المكتبات في الإسلام ، الطبعة الثاني 1398 هـ / 1978م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان ـ .

رحلة ابن بطوطة المسـماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . دار الشرق العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ .

القاضي إسماعيل بن علي الأكوع ؛ أعراف وتقاليد حكّام اليمن في العصر الإسـلامي ، الطبعة الأولـى 1994م ، دار الغرب الإسـلامي ـ بيروت ـ لبنان ـ .

هانز هولفريتز . تعريب : خير حـمّاد ؛ اليمن من الباب الخلفي ، الطبعة الثالثة 1985م ، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع ـ صنعاء ـ .

كلـوُدي فايان . تعريب : الدكتور محسـن أحمد العينـي ؛ كُنت طبيبة في اليمن، الطبعة الثالثة 1985م . منشورات المدينة ـ بيروت ـ لبنان ـ .

العلامة القاضي محمـد بن أحمد الحجري اليمانـي . تحقيق وتصحيح ومراجعة: إسـماعيل بن علـي الأكوع ؛ مجموع بلـدان اليمن وقبائلها ، المجلد الثاني (الجزء الثالث) الطبعة الأولى 1404هـ / 1984م . منشورات وزارة الإعلام والثقافة ـ صنعاء ـ .

ولمزيد من الإطلاع على تراث وتاريخ صنعاء القديمة أقرأ كتاب تاريخ مدينة صنعاء للرازي ، تحقيق ودراسة : الدكتور حسين بن عبد الله العمري . دار الفكر المعاصر ـ بيروت ـ لبنان ـ .